كامل كيلاني

قصص هندية

...يرة القاسية

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلانى

قصص هندية

الأميرة القاسِيَة

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

الفصل الأول

١ — الأميرُ الصَّغيرُ

عاش في إحْدَى مَمالِكِ الْهِنْدِ الواسِعَةِ ، أميرٌ صَغيرٌ ، مَعْرُوفٌ بِرَجاحَةِ الْعَقْلِ ، والإِحْسانِ ، وحُبِّ الْخَيْرِ . وكانَ — عَلَى صِغَرِ سِنِّهِ — مُتَمَيِّزًا في فُنونِ الْحَرْبِ ، بارِعًا في الْمُوسِيقَى . وَقَدْ أَتْقَنَ — إلَى ذٰلِكَ — كَثيرًا مِنَ الصِّناعاتِ والْحِرَفِ ، فَذاعَ صِيتُهُ في جَميعِ الْأَقْطارِ ، وأُعْجِبَ بِهِ النَّاسُ ، وأَحَبَّهُ الشَّعْبُ حُبًّا شَدِيدًا .

٢ — حُزْنُ الأميرِ

كانَ هٰذا الْأَمِيرُ الصَّغِيرُ يُسَمَّى « كُوسا » . وقَدِ اعْتَقَدَ النَّاسُ أَنَّهُ أَسْعَدُ أُمَراءِ عَصْرِهِ ، لِما تَمَيَّزَ بِهِ مِنَ الْمَزايا النَّادِرَةِ . ولَعَلَّكَ تَدْهَشُ إذا حَدَّثْتُكَ أَنَّ هٰذا الْأَمِيرَ الصَّغيرَ لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا ، بَلْ كانَ دائِمَ الْهَمِّ ، كَثيرَ الْأَلَمِ ، لا يَكادُ يَهْنَأُ لَهُ طَعامٌ ، وَلا شَرابٌ وَلا مَنامٌ .

٣ — مَصْدَرُ الأَحْزانِ

أَراكَ تَسْأَلُنِى عَنِ السِّرِّ فى شَقاءِ ذٰلِكَ الْأَمِيرِ الْمُحْسِنِ النَّابِغَةِ :
فاعْلَمْ — أَيُّها الصَّغِيرُ الْعَزِيزُ — أَنَّ هٰذا الْأَمِيرَ كانَ ، عَلَى بَراعَتِهِ وَرَجاحَةِ عَقْلِهِ ، مُشَوَّهَ الصُّورَةِ ، دَمِيمَ الْوَجْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَهْلِ عَصْرِهِ ، مَنْ هُوَ أَوْفَرُ عَقْلاً وَلا أَقْبَحُ شَكْلاً .

وَلٰكِنَّ النَّاسَ جَمِيعًا قَدْ نَسُوا دَمامَةَ وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا إِلَّا جَمالَ خُلُقِهِ ، وَحُسْنَ فِعْلِهِ .

٤ — بَيْنَ الْأَمِيرِ والْمَلِكِ

فَلَمَّا كَبِرَ الأَمِيرُ « كُوسا » قالَ لَهُ أَبُوهُ الْمَلِكُ « أُكَّاكا » :

« لَقَدْ أَصْبَحْتُ — يا ولَدِى — شَيْخًا طاعِنًا فى السِّنِّ ، وَقَدْ دَنا أَجَلِي ، وَأَنْتَ وَلِيُّ عَهْدِى ، وَمَلِكُ هٰذِهِ البِلادِ مِنْ بَعْدِى . وَقَدْ فَكَّرْتُ فى تَزْوِيجِكَ مَنْ تَخْتارُ مِنَ الأَمِيراتِ . »

فَقالَ الأَميرُ « كُوسا » :

« لنْ أُفَكِّرَ فِى الزّواجِ — يا أبى — فَلَيْسَ فى الدُّنْيا فتاةٌ تَرْضَى بِمَنْ كانَ مِثْلى فى دَمامةِ الْخِلْقَةِ . »

فقالَ الْمَلِكُ « أُكّاكا » : « كَلّا يا وَلَدِى ، فَإنَّ رَجاحَةَ عَقْلِكَ ، قَدْ حَبَّبَتْ جَمِيعَ النَّاسِ فيكَ . فَلا تَتَرَدَّدْ فى اخْتِيارِ مَنْ تَشاءُ مِنَ الأميراتِ . »

٥ — التِّمْثالُ الذَّهَبِيُّ

وَلَقَدْ حاوَلَ كلٌّ مِنْهُما أنْ يُقْنِعَ الآخَرَ ، ودارتْ بَيْنَهُما مُناقَشاتٌ كثيرَةٌ — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — ولٰكِنَّها كانَتْ عَلَى غَيْرِ طائلٍ (بِلا فائِدَةٍ) .

فَلَمّا تَعِبَ الأميرُ « كُوسا » مِنْ تِلْكَ الْمُناقَشاتِ الْعَقِيمَةِ (الّتِى لا فائِدَةَ فيها) ، دَبَّرَ حِيلَةً بارِعَةً

تُخَلِّصُهُ مِنْ هٰذا المَأْزِقِ . فابْتَكَرَ تِمْثالًا ذَهَبِيًّا رائِعَ الْجَمالِ . ولَمَّا أَتَمَّ صُنْعَهُ ، وأَيْقَنَ أَنَّ الْعالَمَ كُلَّهُ لَيْسَ فِيهِ فتاةٌ على مِثالِ هٰذا التِّمْثالِ ، قال لِأَبِيهِ : « إذا وَجَدْتُمْ — يا أَبَتِ — فَتاةً كَهٰذِهِ الَّتِي تَرَى تِمْثالَها أَمامَكَ ، فَإِنَّنِى سَأَتَزَوَّجُها ، إطاعَةً لِأَمْرِكَ . »

٦ — رُسُلُ الْمَلِكِ

وَلَمَّا رَأَى الملكُ « أُكَّاكا » هٰذا التِّمْثالَ الفاتِنَ ، يَئِسَ مِنْ زواجِ وَلَدِهِ ، لِأَنَّهُ أَيْقَنَ أنْ لَيْسَ فى العالَمِ كُلِّهِ فَتاةٌ — مِنَ الأَناسِيِّ (النَّاسِ) — لَها مِثْلُ جَمالِ التِّمْثالِ الذَّهَبِيِّ . عَلَى أَنَّهُ بَعَثَ بِطائِفَةٍ مِنَ الرُّوَّادِ والرُّسُلِ ، لِيَطُوفُوا بِلادَ الدُّنْيا — قاصِيَةً وَدانِيَةً — باحِثِينَ عَنِ الفَتاةِ الَّتِى تُشْبِهُ ذٰلِكَ التِّمْثالَ .

٧ — أَمِيرةُ « مادا »

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ والأَسابِيعُ والشُّهُورُ والسِّنُونَ ، وَهُمْ يَجُوبُونَ البِلادَ والأَقْطارَ دُونَ جَدْوَى ، حَتَّى بَلَغُوا مَمْلَكَةَ « مادا » .

فَعلِمُوا أنَّ لِمَلِكِها ثمانِىَ بَناتٍ ، وَأنَّ الأميرَةَ « بَبْهافَاتى » — وَهِىَ كُبْرَى أخَواتِها — تُعَدُّ أجْمَلَ بَناتِ عَصْرِها . وَهِىَ — إلى ذٰلِكَ — تُشْبِهُ التِّمْثالَ الذَّهَبِىَّ فى كلِّ شَىْءٍ . فَلَمَّا أَيْقَنَ الرُّسُلُ بِصِحَّةِ ما سَمِعُوهُ ، ذَهَبُوا إلى مَلِكِ « مادا » . وَأخْبَرُوهُ بِرَغْبَةِ المَلِكِ « أُكَّا كا » فِى تَزْوِيجِ الأميرَةِ « بَبْهافَاتى » لِأَميرِهِمُ العَظيمِ « كُوسا » ابْنِ المَلِكِ « أُكَّا كا » .

٨ — مَلِكُ « مادا »

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ « مادا » هٰذا النَّبأَ ، امْتَلأَ قَلْبُهُ سُرُورًا لِمُصاهرَةِ المَلِكِ « أُكَّا كا » الَّذِى ذاعَ صِيتُهُ — وَصِيتُ وَلَدِهِ — فى جَمِيعِ أَنْحاءِ الدُّنيا ، وَأَخْبَرَ الرُّسُلَ بِمُوافَقَتِهِ عَلَى هٰذِهِ المُصاهَرَةِ .

٩ — عادَةٌ قَدِيمَةٌ

فَلَمَّا عادَ الرُّسُلُ إلى مَلِيكِهِم ، وَأَخْبَرُوهُ بِما وُفِّقُوا إلَيْهِ فى سَفَرِهِمْ ، كانَ فَرَحُ المَلِكِ بِنَجاحِ مَسْعاهُمْ بِمِقْدارِ حُزْنِ وَلَدِهِ « كُوسا » . فَقالَ لِأَبِيهِ ، مُفَزَّعَ القَلْبِ :

« وا أسَفاهُ عَلى ما فَعَلْتمْ . فَقَدْ جَلَبْتمْ عَلَيَّ وَعَلَى تِلْكَ الأميرَةِ شَقاءً لا يُمْحَى ، لِأنَّها سَتَنفِرُ مِنْ رُؤْيَتِى ، مَتَى رَأتْ دَمامَةَ وَجْهِى (قَباحَةَ صُورَتِى) ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْبقاءَ مَعِى أبدًا . »

فقال الْمَلِكُ :

« لَقَدْ فَكَّرْتُ فى هٰذا ، واهْتَدَيْتُ إلى حَلٍّ بارِعٍ يُنْقِذُكَ مِنْ هٰذا المَأْزِقِ . فَإنَّ مِنْ تقالِيدِ أُسْرَتِنا الْقَدِيمَةِ — الَّتى دَرَجَ عَلَيْها آباؤُنا وَأَجْدادُنا — أَنَّ الفَتاةَ الْعَرُوسَ لا تنْظُرُ وَجْهَ عَرُوسِها إلَّا بَعْدَ سَنَةٍ مِنْ عَقْدِ الزَّواجِ .

وَسَنَجْرِى عَلَى هٰذِهِ الْعادَةِ ، فَلا تُقابِلُ عَرُوسَكَ إلَّا فِى دارٍ مُظْلِمَةٍ ، مُدَّةَ عامٍ بِأَكْمَلِهِ . »

فقال الأَميرُ « كُوسا » : « ولٰكِنَّ الأميرةَ سَوْفَ تَرانِى بَعْدَ ذٰلِكَ ، وَتَنْفِرُ مِنْ قُبْحِ مَنْظَرِى ! »

فَأَجابَهُ الْمَلِكُ « أُكَّاكا » : « كَلَّا ، لا تَخْشَ ذٰلِكَ . فَإنَّها سَتَرَى مِنْ حُسْنِ حَدِيثِكَ ، وَكَرَمِ خُلُقِكَ ، وَرَجاحَةِ عَقْلِكَ ، ما يَجْعَلُكَ فى نَظَرِها جَميلًا . »

١٠ — حفلةُ العُرْسِ

لَمْ يَقْتَنِعِ الْأَمِيرُ بِرَأْيِ والدِهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ مُخالَفَتَهُ ، بَعْدَ أَنْ رَأَى إِصْرارَهُ على السَّفَرِ إِلى مَمْلَكَةِ « مادا » لإِحْضارِ أَمِيرَتِها . وَقَدْ عاد بِها فى مَوْكِبٍ حافِلٍ ، ثُمَّ أُقِيمَتْ حَفْلَةُ الزَّواجِ فِى دارٍ مُظْلِمَةٍ ، كما أَمَرَ الْمَلِكُ . وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَةِ الْأَمِيرَةِ « بَبْهافَاتى » حِينَ رَأَتْ ذٰلِكَ ، وَعَرَفَتْ أَنَّ تَقالِيدَ الْأُسْرَةِ تَحْتِمُ (تُوجِبُ) عليْها أَلّا تَرَى وجْهَ زَوْجِها قَبْلَ أَنْ تَمُرَّ سَنَةٌ كامِلَةٌ عَلَى الزَّواجِ .

وكانَ الأميرُ « كُوسا » يَجِيءُ كُلَّ يَوْمٍ لِزِيارَةِ عَرُوسِهِ فى حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ مِنْ هٰذِهِ الدّارِ . وسُرْعانَ ما أَحَبَّتْهُ زَوْجُهُ لِوَداعَةِ خُلُقِهِ ، وسَعَةِ اطِّلاعِهِ ، وبَراعَتِهِ فى الْمُوسِيقَى . وسُرَّتْ بِهِ ، وإِنْ لمْ تَرَ وجْهَهُ . وظَلَّ يَقْضِى ساعاتِهِ الطَّوِيلَةَ ، مُوقِعًا عَلَى قِيثارَتِهِ أَبْدَعَ الْأَلْحانِ ، أَوْ قاصًّا عَلَيْها أَمْتَعَ الْقَصَصِ ، فَتَبْتَهِجُ ، وتَقُولُ لِنَفْسِها :

« ما أظُنُّ أنَّ فى الدُّنيا كلِّها أجْمَلَ مِنْ هٰذا الأميرِ ، ولا أطْيَبَ مِنْهُ قَلْبًا ، ولا أرْجَحَ مِنْهُ عَقْلًا . »

وَما إنْ مَرَّ عَلَيْها شَهْرانِ ، حَتَّى اشْتَدَّتْ رَغْبَتُها فى رُؤْيَتِهِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أنْ كاشَفَتْهُ بِذٰلِكَ ، فَأَجابَها مَذْعُورًا : « إنَّ قَوانِينَ أُسْرَتِنا وَتَقالِيدَها لا تُجِيزُ ما تَطْلُبِينَ . فاصْبِرِى ، فَإنَّ الشُّهُورَ تَمُرُّ سِراعًا . »

١١ — مَوْكِبُ الأَميرِ

فَلَمْ تَسْتَطِعِ الأميرَةُ صَبْرًا ، وَاضْطُرَّتْ — آخِرَ الْأَمْرِ — إلى إغْراءِ بَعْضِ خَدَمِها بِالْمالِ ، لِيُمَكِّنَها مِنْ تَحْقِيقِ هٰذِهِ الْأُمْنِيَّةِ . وتَحَيَّنَ الْخادِمُ يَوْمًا مِنْ أعْيادِهِمْ ، وَأَخْبَرَ مَوْلاتَهُ أنَّ مَوْكِبَ الأميرِ سَيَتَحَرَّكُ بَعْدَ قَلِيلٍ . وأَصْعَدَ الأميرَةَ إلى الطَّبَقِ الأَعْلَى مِنَ الْقَصْرِ ، حَيْثُ تُشْرِفُ (تُطِلُّ) إحْدَى نَوافِذِهِ عَلَى الطَّرِيقِ .

* * *

ورَأَتِ الْمَوْكِبَ يَقْتَرِبُ ، والرَّاياتِ والأَعْلامَ تَخْفُقُ ،

والنَّاسَ يَرْمُونَ أكاليلَ الْأَزْهارِ على أقْدامِ الْفِيلِ الْأَبْيضِ الَّذِى يَتهادَى بِالأميرِ . وسَمِعَتْ أصْواتَ الشَّعْبِ مُرْتَفِعةً مُتعالِيَةً بالدُّعاءِ لَهُ ، تُحَيِّيهِ أحْسَنَ التَّحِيّاتِ .

١٢ — رُجُوعُ الأَميرةِ

ولَمْ تَـكَدِ الْأَميرَةُ تَرَى زَوْجَها ، حتَّى خابَ أمَلُها ، واشْتَدَّ خوْفُها . فَصاحَتْ : « كَـلَّا ، لَيْسَ هٰذا زوْجِى أبَدًا ! » فَلَمَّا تَأَكَّدَ لَها أنَّهُ هُوَ الْأَميرُ « كُوسا » ، اعْتَزَمَتِ الرُّجوعَ إلى بلَدِها ، نُفُورًا (بُغْضًا وَكُرْهًا) مِنْ دَمامَتِهِ . وحاوَلَ المَلِكُ « أُكَّا كا » أنْ يُرْغِمَها على أن تَبْقَى فى الْقَصْرِ ، ولٰكِنَّ « كُوسا » تَوسَّلَ إليْه أنْ يَدَعَها وشَأْنَها .

وحِينَئِذٍ خَرَجَتِ الْأَميرَةُ مِنَ الْقَصْرِ راجِعةً إلى بَلَدِها ، تَحْرُسُها حامِيَةٌ مِنَ الْجُنْدِ ، وَقَدْ مَلأَتْ قَلْبَ الْأَميرِ حُزْنًا وَأَلَمًا ، إذْ نَسِيَتْ شَمائِلَهُ النَّبِيلَةَ (مَزاياهُ الْجَمِيلَةَ) ، ولَمْ تَذْكُرْ إلا قُبْحَ شَكْلِهِ .

الفصل الثانى

١ — فى مُنْتَصَفِ اللَّيْل

حَزِنَ الأَمِيرُ لِفِراقِ زَوْجِهِ ، فَخَطَرَ لَهُ أَنْ يُسافِرَ إِلَى مَمْلَكَةِ « مادا » . وَثَمَّةَ غَيَّرَ مِنْ ثِيابِ الْإِمارَةِ ، وارْتَدَى ثَوْبًا شَعْبِيًّا ، وَسافَرَ بِقِيثارَتِهِ . وَقَضَى أَيَّامًا كَثِيرَةً ، يَفْتَرِشُ فى نَوْمِهِ الْأَرْضَ ، وَيَلْتَحِفُ السَّماءَ ، (أَعْنِي : يَجْعَلُ الْأَرْضَ فِراشًا لِنَوْمِهِ ، والسَّماءَ لِحافًا لَهُ) ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرَةِ فى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ . فعَزَفَ — على قِيثارِهِ — طائِفَةً مِنَ الْأَناشِيدِ الْعَذْبَةِ الَّتى كانَتْ تَطْرَبُ لَها ، فاسْتَيْقَظَ مَنْ فى الْقَصْرِ مِنْ نَوْمِهِمْ . وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ — فى أَحْلامِهِمْ — مُوسِيقَى سماوِيَّةً فاتِنَةً .

٢ — غَضَبُ الْأَمِيرَةِ

واسْتَيْقَظَتِ الْأَمِيرَةُ — عَلَى عَزْفِ الْمُوسِيقَى — وَجَلَسَتْ مُعْتَدِلَةً عَلَى وِسادَتِها . وَعَرَفَتْ أَنَّ الْأَمِيرَ « كُوسا » قَدْ حَضَرَ إِلى بِلادِها

لِيُرْغِمَها على الْعَوْدَةِ مَعَهُ . وَتمثَّلَتْ لها دَمامَةُ خَلْقِهِ (قَباحَةُ شَكْلِه) ، فاشْتَدَّ سُخْطُها علَيْهِ ، إذْ عَرَفَتْ أنَّ أباها سَيَضْطَرُّها إلى الرُّجُوعِ مَعَهُ .

عَلَى أنَّ « كُوسا » لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ إلى ما حَسِبَتْهُ الأَمِيرَةُ ، بَلْ كانَ يُرِيدُ أنْ تَعُودَ مَعَهُ بِمَحْضِ إرادَتِها . وَلِهٰذا كَتَمَ أمْرَهُ ، وَجاءَ إلى بَلَدِها سِرًّا . وَلَمْ يَشَأْ أنْ يُعْلِمَ بِذٰلِكَ أحَدًا غَيْرَها ، وَآثَرَ (اخْتارَ وفَضَّلَ) أنْ يُرْسِلَ إِلَيْها تَذْكارًا لا يَعْرِفُهُ سِواها .

٣ — فى دُكانِ الْخَزَّافِ

فَذَهَبَ فى الصَّباحِ الْباكِرِ إلى خَزَّافِ الْمَدِينَةِ (بائِعِ الْفَخَّارِ) فَقالَ لَهُ : « لَقَدْ أتْقَنْتُ صِناعَةَ الْخَزَفِ الْمَلَكِيِّ ، فَهَلْ تَعِدُنِى — إذا أَعْجَبَكَ فَنِّى وَمَهارَتِى وَدِقَّةُ صَنْعَتِي —

أنْ تَرْفَعَ ما أَصْنَعُهُ إلى السُّدَّةِ (الْعَتَبةِ) الْمَلَكِيّةِ ؟ »

فقالَ لَهُ الْخَزّافُ : « إذا كانَتْ صِناعَتُكَ تَسْتَحِقُّ هٰذا الشَّرَفَ ، فَلَنْ أتأَخَّرَ عَنْ تَحْقيقِ مأْرَبِكَ . »

وَجلَسَ الْأَميرُ إلى عَجَلةِ الْخَزّافِ وأدارها ، وَسَوَّى عَلَيْها أقْداحًا تَأَنَّقَ في صُنْعِها (عَمِلَها بالْإتْقانِ) . وَقَدْ عجِبَ الْخَزّافُ مِنْ بَراعَةِ « كُوسا » ، وَقالَ لَهُ : « ما أَجْدَرَني أَنْ أَرْفَعَ هٰذِهِ الْأَقْداحَ الْمُلوكِيّةَ الْفاخِرَةَ إلى سُدَّةِ مَليكِنا الْمُعَظَّمِ ، فَهُوَ معْرُوفٌ بِتَشْجيعِ النّابِغينَ . »

٤ — ابْتِهاجُ الْمَلِكِ

ثُمَّ حَمَلَ الْخَزّافُ بَعْضَ هٰذِهِ الْأَقْداحِ إلى الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ . فَأُعْجِبَ بِها الْمَلِكُ ، وَسَأَلَ الْخَزّافَ عَنْ صانِعِها . فَلمّا أخْبَرَهُ بِهِ قالَ : « أَعْطِ الصّانِعَ الشّابَّ هٰذِهِ الأَلْفَ مِنَ الدَّنانيرِ مُكافأةً عَلى حِذْقِهِ وَبَراعَتِهِ . واحْمِلْ هٰذِهِ الأَقْداحَ الثّمانِيَةَ هَدِيَّةً إلى بَناتِيَ الثّماني . »

٥ — قَسْوَةُ الْأَمِيرَةِ

فَلَمَّا أهداها إِلَيْهِنَّ ، ابْتَهَجْنَ جَمِيعًا بها ، ما عدا الْأَمِيرَةَ الْقاسِيَةَ « بَبْهافاتى » ،

فَقَدْ أَدْرَكَتْ أَنَّ الْقَدَحَ مِنْ صُنْعِ زَوْجِها ، حِينَ فَحَصَتْ عَنْهُ ، فاشْمَأَزَّتْ (نَفَرَتْ كارِهَةً) ، وَرَجَعَتِ الْقَدَحَ إِلى الْخَزَّافِ ، وَقالَتْ لَهُ فى سُخْرِيَةٍ لاذِعَةٍ :

« اِرْجِعْ هٰذا الْقَدَحَ

السَّمِيجَ ، واقْذِفْ بِهِ فِى وَجْهِ صانِعِهِ السَّخِيفِ ، وَأَبْلِغْهُ أنَّنِى لَنْ أَقْبَلَ شَيْئًا مِنْ صُنْعِ يَدِهِ . »

٦ — وَداعُ الْخَزَّافِ

وَلا تَسَلْ عَنْ حُزْنِ الْأَمِيرِ حِينَ أَبْلَغَهُ الْخَزَّافُ ما قالَتْهُ الْأَمِيرَةُ « بَبْهافاتى » . فَقَدِ امْتَلأَ قَلْبُهُ أَلَمًا وغَمًّا ، وَقالَ فِى نَفْسِهِ :

« وا أَسَفاهُ ! إِنَّها لا تَزالُ تَحْقِرُنى لِدَمامَةِ وَجْهِى ، وَقُبْحِ صُورَتى !

ولٰكِنَّنِى لَنْ أَيْأَسَ ، فَلَعَلَّها — إِذا رَأَتْنِى أَمامَها — تُغَيِّرُ مِنْ رَأْيِها ، ويَظْهَرُ لها أَنَّها أَسْرَفَتْ (جاوَزَتِ الْحَدَّ) فى الْقَسْوَةِ ، فَتَنْدَمَ على ما فَعَلَتْ . »

وثَمَّةَ اعْتَزَمَ الْخِدْمَةَ فى قَصْرِ أَبِيها ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَ الْخَزَّافَ الدَّنانِيرَ الَّتى كافَأَهُ بِها الْمَلِكُ ، وَوَدَّعَهُ .

٧ — فى مَطْبَخِ الْقَصْرِ

وَرَأَى — مِنْ أَماراتِ التَّوْفِيقِ وحُسْنِ الْحَظِّ — أَنَّ رئِيسَ الطُّهاةِ

فى الْقَصْرِ ، كانَ يَبْحَثُ — فِى ذٰلك الْيَوْمِ — عَنْ صَبِىٍّ يُعاوِنُهُ فى عَملِهِ . فَلَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُلْحِقَهُ بالعمل ، قالَ لَهُ : « سَأَقْبَلُكَ مَتَى نَجَحْتَ فى الِامْتِحانِ . » .

ولَقَدِ اشْتَدَّتْ دَهْشَةُ كَبِيرِ الطُّهاةِ حِينَ رَأَى بَراعَةَ هٰذا الْفَتَى وَمَهارَتَهُ الْفائِقَةَ ، فَقَدَّمَ لِلْمَلِكِ الطَّبَقَ الَّذِى أَعَدَّهُ لَهُ . فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ :

« هٰذا أَشْهَى طَعامٍ أَكَلْتُهُ طولَ عُمْرِى . فَمَنْ ذا الَّذِى أَبْدَعَ هٰذا الطَّعامَ اللَّذِيذَ وَسَوَّاهُ ؟ »

فَقَصَّ عليهِ رَئيسُ الطُّهاةِ (كَبِيرُ الطَّبَّاخِينَ) نَبأَ ذٰلِكَ الْفَتى الذَّكِىِّ الْمَوْهُوبِ . فأَمَرَه الْمَلِكُ بِمَنْحِهِ أَلْفَ دِينارٍ مُكافأَةً لهُ ، كما أَمَرَ أَنْ يُهَيِّئَ هٰذا الشَّابُّ مائِدَةَ الطَّعامِ — كلَّ يَوْمٍ — لهُ ولبَناتِهِ الْأَميراتِ الثَّمانى .

٨ – كِبرياءُ الأميرةِ

وحِينَ سَمِعَ الأميرُ « كُوسا » بما حَدَثَ ، ابتهجَ وأعطَى رئيسَ الطُّهاةِ الدّنانيرَ كلَّها ، وهُوَ يَحْسَبُ أنَّ سَعْيَهُ – فى هٰذِهِ المَرَّةِ – لَنْ يَخِيبَ . وبَعْدَ قَليلٍ حانَتْ مِنَ الأميرَةِ القاسِيَةِ التِفاتَةٌ ، فرَأَتْ زَوْجَها – وهُوَ فى ثِيابِ طَبّاخٍ – يَحْمِلُ صِحافَ المائِدَةِ (أطباقَها) ، وَهُوَ مُتْعَبٌ مَجْهُودٌ مِنْ كَثْرَةِ العَمَلِ طولَ يَوْمِه . فَلَمْ يَخْفَ عليْها أَمْرُهُ . ولٰكِنَّها أَنْكَرَتْ مَعْرِفَتَهُ (تَظاهَرَتْ بأَنَّها لا تَعْرِفُهُ) . ثُمَّ قالَتْ لهُ فى عَجْرَفَةٍ وصَلَفٍ : « لا تُحْضِرْ لِى شَيْئًا مِنَ الطَّعامِ ، فَلنْ آكُلَ شَيْئًا تَمَسُّهُ يَدُكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُوصِىَ غَيْرَكَ بإِحْضارِ طَعامِى . »

فَغَضِبَتْ أَخَواتُها مِنْ كِبْرِيائِها وَصَلَفِها ، وقُلْنَ لَها :

« لَقَدْ ظَلَمْتِ هٰذا الطّاهِىَ ، وَأَسَأْتِ إليْهِ بِلا سَبَبٍ . وَقدْ كانَ يَجْدُرُ بكِ أَنْ تَشْكُرِى لهُ مَهارَتَهُ النّادِرَةَ ، الّتِى مَيَّزَتْهُ عَلَى الطُّهاةِ أَجْمعِينَ . »

فَلَمْ تَعْبَأِ الْأَمِيرَةُ الْقاسِيَةُ بِنَصِيحَةِ أَخَواتِها ، وَأَبَتْ لَها كِبْرِياؤُها أَنْ تَعْتَرِفَ بِخَطَئِها ، وأَصَرَّتْ عَلَى أَلَّا تُشارِكَ أَخَواتِها فى ذٰلِكَ الطَّعامِ الشَّهِيِّ .

٩ — يَأْسُ الْأَمِيرِ

وَحِينَئِذٍ أَدْرَكَ الْأَمِيرُ التَّاعِسُ أَنَّ كُلَّ جُهْدٍ يَبْذُلُهُ فى إِرْضاءِ الْأَمِيرَةِ سَيَذْهَبُ عَبَثًا . فقالَ فى نَفْسِهِ مَحْزُونًا :

« لَقَدْ بَذَلْتُ كُلَّ ما فى وُسْعِى دُونَ أَنْ أَظفَرَ بِطائِلٍ . وَما دامَتْ هٰذهِ الْأَمِيرَةُ الْقاسِيَةُ لا تُعْنَى بِغَيْرِ الْمَظاهِرِ ، ولا يَشْغَلُها حُسْنُ مَخْبَرِى ، عَنْ قُبْحِ مَنْظَرِى ، فَإِنِّى سأَتْرُكُها غَيْرَ آسِفٍ عَلَى فِراقِها وَلا نادِمٍ ! »

١ — المُلوكُ السَّبْعَةُ

اعْتَزَمَ الأميرُ « كُوسا » أَنْ يَعُودَ إلى وطَنِهِ . وَإِنَّهُ لَيَهُمُّ بِمُغادرةِ الْقَصْرِ ، إذْ سَمِعَ لَغَطًا (كلامًا غَيْرَ واضِحٍ) ، وَرأَى حَيْرَةً تَبْدُو على وَجْهِ كلٌّ مَنْ رَآهُ . فَلَمَّا سَأَلَ عَنْ جَلِيَّةِ الْخَبَرِ ، عَلِمَ أَنَّ صِهْرَهُ مَلِكَ « مادا » مَهْمومٌ مَحْزونٌ ، لِأَنَّ سَبْعَةً مِنْ جِيرانِهِ الْمُلوكِ يَعْتَزِمُونَ حَرْبَهُ — كلٌّ واحدٍ مِنْهُمْ على رَأْسِ جَيْشٍ كَبيرٍ — وأَنَّ سَبَبَ قُدُومِهِمْ إليْهِ أَنَّهُمْ سمِعوا بِجَمالِ الأَميرَةِ « بَبْهافاتى » ، فَجاءَ كلٌّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَبْتَغِي أَنْ يَتزَوَّجَها . وقَدْ تَحَيَّرَ الْمَلِكُ فى أَمْرِهِ ، إذْ رَأَى عَجْزَهُ عَنِ التَّوْفيقِ بَيْنَ الْمُتَسابِقِينَ عَلَيها .

فقالَ الْمَلِكُ فى نَفْسِهِ : « لَوْ بَقِيَتْ بِنْتِي معَ زَوْجِها الأَميرِ « كُوسا » لَما جَرَّتْ عَلَيْنا كلَّ هٰذِهِ الْمَصائِبِ . »

٢ — نَصيحَةُ الْحُكَماءِ

على أَنَّهُ رَأَى أَنَّ النَّدَمَ على ما فاتَ لَنْ يُجْدِيَهُ نَفْعًا ، فاسْتَدْعَى

حُكماءَهُ ومُسْتَشارِيهِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ ، فَأَفْتَوْهُ — مُجْمِعِينَ — أَنَّ الْأَميرَةَ « بَنْهافَاتِى » قَدْ عَرَّضَتْ سَلامَةَ الدَّوْلَةِ لِلْخَطَرِ ، حِينَ هَرَبَتْ مِنْ زَوْجِها ، وَلا بُدَّ مِنْ مُعاقَبَتِها على ذٰلِكَ ، بِأَنْ يُقَطَّعَ جِسْمُها سَبْعَ قِطَعٍ مُتَساوِيَةً ، ثُمَّ تُهْدَى — إلى كُلِّ واحِدٍ مِنَ الْمُلوكِ السَّبْعَةِ — قِطْعَةٌ مِنها . وَبِهٰذا وَحْدَهُ تَسْلَمُ الدَّوْلَةُ مِنْ وَيْلاتِ الْحَرْبِ ، وتَنْجُو مِنْ مصائِبِها .

فَسَرَى ذٰلِكَ الْخَبَرُ فى الْقَصْرِ ، فارْتاعَ لَهُ جَمِيعُ مَنْ فِيهِ .

٣ — نَصِيحَةُ « كُوسا »

وَفيما كانَ الْمَلِكُ جالِسًا وَحْدَهُ يُفَكِّرُ ، إِذْ رَأَى « كُوسا » يَظْهَرُ أمامَهُ فَجْأَةً ، وَعَلَيْهِ ثَوْبُ الطُّهاةِ ، وَيقولُ لَهُ : « أتَأْذَنُ لِي — يا مَوْلاىَ — أنْ أُخْضِعَ لَكَ هٰؤُلاءِ الْمُلوكَ الْباغِينَ (الظّالِمينَ الْمُعْتَدِينَ) ، أوْ أَمُوتَ كَريمًا فِي سَبيلِ الدِّفاعِ عَنْكَ ؟ »

فَصاحَ فيهِ الْمَلِكُ مَدْهُوشًا : « كَيْفَ تَقُولُ ؟ أَيَجْرُؤُ خادِمٌ مِثْلُكَ على مُحارَبَةِ سَبْعَةِ مُلوكٍ مُجْتَمِعينَ ؟ »

فقصَّ عليه قِصَّتَهُ كُلَّها . فاستولَتْ عليهِ الدَّهْشَةُ ، وَنادَى بِنْتَهُ ، وَسألَها عَنْ جَلِيَّةِ الْخَبَرِ . فَلمَّا تأكَّدَ لهُ صِدْقُ ما يَقولُ ، صَرَخَ فيها مُهْتاجًا : « يا لَلْعارِ ! أَكَذٰلِكِ تَجْزِينَ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكِ ؟ »

ثُمَّ طَرَدَها شَرَّ طِرْدَةٍ ، وطَلَبَ مِنَ الْأَميرِ « كُوسا » أَنْ يَغْفِرَ هٰذِهِ الإِهانَةَ ، فأَجابَهُ إلى طِلْبَتِهِ .

٤ — فى مَيْدانِ الْحَرْبِ

ثُمَّ أسرعَ « كُوسا » — على رَأْسِ جَيْشٍ كبيرٍ — لِمُلاقاةِ الْغُزاةِ الْمُغِيرِينَ . فَلَمَّا بَرَزَ لَهُمْ ، صاحَ بأَعْلَى صَوْتِهِ :

« لا حاجةَ بِنا إلى إهْراقِ الدِّماءِ ، وقتْلِ الْأَبْرِياءِ ، فَلْيَنْزِلْ إلى الْمَيْدانِ مَنْ شاءَ من رُؤَسائِكُمُ السَّبْعَةِ ، فَمَنْ أَسَرَنى أَوْ قَتَلَنِي ظَفِرَ بالأَميرةِ ، ومَنْ أَسَرْتُهُ أَوْ قَتَلْتُه ، فَقَدْ لَقِيَ جَزاءَهُ العادِلَ ، وكَفَى جَيْشَهُ شَرَّ الْقِتالِ . »

* * *

فارْتاح الْمُلوكُ السَّبْعَةُ لِهٰذا الرَّأْيِ ، وَما انْتَصَفَ النَّهارُ

حتّى أَسَرَهُمْ جَمِيعًا . فانْخَذَلَتْ جُيُوشُهُمْ بَعْدَ أَسْرِ مُلوكِهِمْ .

٥ — الْحَلُّ السَّعِيدُ

ثُمَّ قالَ الأَميرُ الْمُنْتَصِرُ لِصِهْرِهِ مَلِكِ « مادا » :

« هٰؤُلاءِ أَسْراكَ الخاضِعونَ ، فَأَنْفِذْ أَمْرَكَ فيهم بِما تشاءُ ! »

فأجابهُ الْمَلِكُ : « الرَّأْىُ ما تَراهُ ، فإِلَيْكَ وحْدَكَ فَضْلُ ما ظَفِرْنا بِهِ من فَوْزٍ وانْتِصارٍ . »

فقالَ « كُوسا » : « إنَّ لِلأَميرةِ « بَيْهافاتى » سَبْعَ أَخَواتٍ ، وهٰؤُلاءِ سَبْعَةُ مُلوكٍ ، فهَلْ تَأْذَنُ — يا مَوْلاىَ — فى أَنْ يَتَزَوَّجَ كلٌّ منهُمْ أميرةً مِنْهُنَّ . »

فابْتَهَجَ لِهٰذا الْحَلِّ الْمُوَفَّقِ السَّدِيدِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ ، وَأَقَرَّهُ مَلِكُ « مادا » والْمُلوكُ السَّبْعَةُ الآخَرُونَ . وأُقِيمَتْ حَفَلاتُ الْأَعْراسِ ، وابْتَهَجَ الشَّعْبُ لِهٰذا الْفَوْزِ الْمُبِينِ .

٦ — نَدَمُ الأَميرةِ

أَمّا الْأَميرةُ الْقاسِيَةُ ، فَقَدْ جَلَسَتْ — وحْدَها — تَبْكِى حظَّها

الْعاثِرَ ، وتَتَحَسَّرُ مُتألِّمَةً ، لِماَ أَسْلَفَتْهُ إلَى هٰذا الْأَمِيرِ الْعَظِيمِ ، مِنْ قَسْوَةٍ وإساءَةٍ .

وأدْرَكَتْ — حِينَئِذٍ — فَضْلَهُ على غَيْرِهِ منَ الرِّجالِ ، وتَكَشَّفَ لَها ما تَمَيَّزَ بِهِ منْ كَرِيمِ الْخِلالِ ، وحَمِيدِ الْخِصالِ .

ولٰكِنَّها قالَتْ فى نَفْسِها :

« ما أَظُنُّهُ يَغْفِرُ لى حَماقَتِي وقَسْوَتى بَعْدَ الْيَوْمِ أبدًا . »

٧ — عَفْوُ الأَمِيرِ

ولا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى على قَلْبِها منَ الْبَهْجَةِ ، حِينَ عَلِمَتْ أَنَّ الأَمِيرَ « كُوسا » يَدْعُوها إلى لِقائِهِ . فَقَدْ أَسْرَعَتْ إلَيْهِ تَسْتَغْفِرُهُ ، وارْتَمَتْ عَلَى قَدَمَيْهِ تَلْتَمِسُ عَفْوَهُ ، وتَقُولُ لهُ :

« سأَكُونُ لكَ — إِذا تَجاوَزْتَ عنْ ذَنْبِي — خادِمَةً طائِعَةً لك ما حَيِيتُ . »

* * *

فأَنْهَضَها الأَمِيرُ مُتَرَفِّقًا ، وقال لها مُتلطِّفًا :

« أَتَرْضَيْنَ أَنْ تَعودى مَعى بِرَغمِ دَمامَةِ وجْهى ، وقُبْحِ صُورَتى ؟ »
فأنْعمَتِ النَّظَرَ فيهِ ، وعَجِبَتْ مِمَّا يقولُ ، لِأَنَّها لَمْ تَرَ أَثَرًا لِتلْكَ الدَّمامةِ الّتى كانتْ تَراها فى وجْهِهِ مِنْ قَبْلُ .

* * *

وهٰكذا تبَدَّلَ احْتِقارُها إجْلالًا، وكِبْرِياؤُها تَواضُعًا ، وصاحَتْ قائلَةً :
« لَقَدْ تغَيَّرَ كلُّ شَىْءٍ فيكَ ، وأَصْبَحْتُ أَراكَ فى أجْمَلِ مَنْظَرٍ ، وأحْسَنِ مَظْهَرٍ . »

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلا شَكَّ فى أنّكَ تعرِفُ — أيُّها الطِّفْلُ الْعزيزُ — أنّ وَجْهَ الأَميرِ «كُوسا» لَمْ يَتَبَدَّلْ ، كما ظَنَّتِ الأَميرَةُ . وَلٰكِنَّ شَجاعَتَهُ ، وَحُسْنَ فَعالِهِ ، وطِيبَةَ قَلْبِهِ ، وكَرَمَ خِصالِهِ ، قَدْ خَلَعَتْ عليهِ جَمالًا رائعًا ، وحُسْنًا ساحِرًا .

* * *

وَلا عَجَبَ فى ذٰلكَ ، فَقَدْ حَبَّبَتْهُ إلى الْقلوبِ مَواهِبُهُ ومَزاياهُ ، وخَلَّدَتْ — على مَرِّ الْعُصورِ — اسْمَهُ وَذِكْراهُ ، وجَذَبَتْ إلَيْهِ كلَّ مَنْ سَمِعَ بِهِ أوْ رَآهُ .

مكتبة الكيلانى للأطفال[1]

. . . . ولقد كان من مظاهر نهضة « مصر » الأدبية الأخيرة ، إهداؤها إلى جيرانها — منذ مدة يسيرة — تحفاً كثيرة . فقد ضرب المصريون بسهم وافر فى كل علم وفن . ولم يذهلوا عن حاجة الأطفال ، فأنشأوا كتباً صغيرة متقنة مستوفية شرائط التسهيل والترغيب والإفادة ، ونفحوا بها العالم العربى ، فتهافت جيرانهم عليها فى مختلف البقاع . وصارت مدارس « لبنان » و « سورية » و « فلسطين » و « العراق » تغذى أطفالها ببواكير العلم من « مكتبة الأطفال » الأنيقة ، التى سد بها حاجة الشرق الماسة أديب مصر الكبير : الأستاذ « كامل كيلانى » : « صاحب الثورة البيداجوجية الرشيدة فى عالم الأطفال » كما قال الوزير السابق « محمد على علوبة » .

* * *

لقد تيسر لى درس الأسلوب الذى تمشى ذلك الأديب الكبير عليه فى تأليف هذه الكتب . فرأيت للمرة الأولى كاتباً يراعى بمنتهى الدقة مبادئ هذا الفن ، ويسير — فى تأليف كتبه — على القواعد الأساسية التى رسمتها الطبيعة لكل فن من الفنون . رأيت فيه ميلا فطريًّا إلى فهم طبائع الأطفال . فأخذ يدرس مطاليبهم وميولهم ، كما درس « لافونتين » قرى النمل وخلايا النحل . . . .

أمين الغريب

---

(١) من رسالة : « النقش فى الحجر » للأديب اللبنانى العالم ، الأستاذ أمين الغريِّب

مكتبة الأطفال بقلم كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص. ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ المنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ » فى بلاد العمالقة .
٣ » فى الجزيرة الطيارة .
٤ » فى جزيرة الجياد الناطقة .
٥ روبنسن كروزو .

قصص عربية

١ حى بن يقظان . ٢ ابن جبير فى مصر والحجاز .
٣ عودة ابن جبير إلى سوريا والأ

قصص تمثيلية

١ الملك النجار .